مفاهيم الخير في المسيحيّات الحديثة والمعاصرة
من أجل بيداغوجيا للإحسان

جاني لا بيللا

أثناء مداخلته في المؤتمر العلمي الدّولي للكاثوليك، المنعقِد في بروكسيل ما بين الخامس والثامن من سبتمبر 1894م، لخّص جوسيبي تونيولو فلسفة العمل الخيري من وجهة نظر مسيحيّة في قوله: «يستند الإحسان من منظورنا إلى دلالة دينيّة عميقة، سواءٌ أكان ذلك من حيث أدواته أو من حيث أشكاله التعاونية، ولذلك يتّخذ العمل الخيري من منظورنا طابعاً كَنَسيّاً محضاً»[1]، ليختتم قوله: «ولطابعه الدّيني والاجتماعي اِتّخذ الإحسان دائماً وظيفةً تربويةً بامتياز، فهو من هذا الباب يمثّل لدينا دائماً عاملاً من عوامل التطوّر الذهني»[2]، وتبعاً لذلك «أن نكتب تاريخ الإحسان هو عبارة عن كتابة فعل ديني خالص»[3].

1 - G. Toniolo, *L'histoire de la charité en Italie*, Bruxelles 1895, p. 6.

2 - *Ibidem*, p. 12.

3 - *Ibidem*, p. 16.

أستاذ التاريخ المعاصر بالجامعة الإيطالية.

أولاً: الآفاق الجديدة لرسالة «القضايا المستجدّة» البابويّة

بدا في الحقبة المعاصرة منعرجٌ حاسمٌ في الموقف المتعلّق بالفقراء، وذلك من خلال الرّسالة البابوية «**القضايا المستجدة**» (**Rerum Novarum**) ـ 1891 ـ التي دشّنت مولد العقيدة الاجتماعية للكنيسة، وأرست الخطوط الكبرى للعمل الكَنَسي تجاه الفقراء، وإلى غاية المستجدّات الحادثة مع مجمع الڤاتيكان الثاني (1962 ـ 1965).

فقد صاغ العديد من الأشخاص والجماعات ـ من داخل المسيحية العالمية ـ وعياً جديداً تجاه الأوضاع الدرامية التي تعيش في أحضانها الطبقة الكادحة؛ ذلك أن الرّسالة البابوية المشار إليها هي الوثيقة البابوية الأولى التي عالجت بشكل منهجيّ الأوضاع العمّاليةَ، وعرَضت في الآن نفسه رؤية لاهوتية وعقدية حول مسألة الفقر والفقراء، وهو المجال المتعلّق تقليدياً بكبار السنّ والمرضى والعجزة والمشرَّدين. فقد اندثر ما تحت البروليتاري من الفضاء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي من المجتمع السياسي والمدني لذلك الوقت. فمنذ ذلك العهد سوف يتماثل الفقير مع العامل والكادح بشكل عام. إذ تميّزت نهاية القرن بفورة التطوّر الصناعي وبتفاقم صراع الطّبقات والصراع الاجتماعي. فمع الثورة الصناعية، والحدث البرجوازي، والاعتراف بالفكر الحرّ، وحرّية المعتقد، والديمقراطية، هزّت الحداثة التاريخ. وفي خضمّ تلك التحوّلات العميقة تحدّث الرّاهب هنري لوباك عن «دراما الإنسانوية الملحِدة» التي أعلنت إزاحة الدّين من التاريخ. فقد كان السياق العام مشوباً بطابع القطع مع الماضي بعنف، وبتدشين مسارات جديدة تحت دوافع طوباوية تهدف إلى خلق «الإنسان الجديد». بدا القرن القادم عصرئذٍ أكثر علْمنةً ممّا سبق، وأكثر تملّصاً من الدّين؛ فقد دخلت المسيحيةُ القرنَ العشرينَ ـ كما كتب المؤرخ الإيطالي أندريا ريكاردي ـ «في وضع الضيف، إلى قرن يبدو قد فَقَدَ أو بصدد فقدان طابعه التقليدي المسيحي»[4]. حينها مثّلت رسالة «**القضايا المستجدة**» البابوية نقطةً فارقةً من خلال تشديدها على الصّلة الرابطة بين

4 ـ A. Riccardi, *Intransigenza e modernità. La Chiesa cattolica verso il terzo millennio*, Roma-Bari 1996, p. 4.

البُعـد الاجتماعي والإيمان. فقد خرجت الكنيسـة من المقـدّس ودخلت ثنايا الحيـاة الاجتماعية بـكلّ تفاصيلهـا وتعرّجاتهـا؛ إذ مثّلت رسـالة «**القضايا المستجدة**» البابويـة عودةً للتاريخ، بما سمح للكنيسـة أن تتصالح مع العالم الحديث. دعا البابا رجالَ الدّين ـ كما كتب الأسقف كوتانس أ. جرمان ـ إلى عدم الانعزال وراء جدران كنائسـهم والذهاب للِقاء النـاس؛ «بعبارة موجزة ينبغي على الرّاهب أن يتذكّر أنّ الإنجيل ينبغي أن يُبشَّـر به الفقراء»[5]. خلّفَ ذلك المسعى لتنقية العلاقة بين الفقراء والكنيسة في أوروبا شكلاً جديداً من ممارسـة المهمّة الدينية. لقد ولّـدت رسـالة «**القضايا المستجدّة**» البابوية تمدّداً جديداً صوب الفقراء والمهاجرين، عضدته أشـكال من التنظّـم العمّالية والنقابيـة ترافقت بتشـييد المدارس المهنية والمطالبـات المتكرّرة بحقـوق الأجـراء، يأتـي كل ذلك ضمن مسـعى مستجدّ، وهو أن يتوجّه الإنجيل نحو الفقراء[6].

بدا في الحقبة المعاصرة منعرجٌ حاسمٌ في الموقف المتعلّق بالفقراء، وذلك من خلال الرّسالة البابوية «القضايا المستجدة» التي دشّنت مولد العقيدة الاجتماعية للكنيسة، وأرست الخطوط الكبرى للعمل الكَنَسي تجاه الفقراء.

ثانياً: مَأْسَسة الإحسان

يتعلّق الأمر بمسارٍ مسـتجدّ في عالم الثقافة ـ قياساً بما هو سـائد ـ وجد أتباعاً بين من سُمّوا بـ«القدّيسـين الاجتماعيين» حينها. لم يغب فيه البُعد العالميّ لتلك الحركة بقصد اللّقاء بالفقراء على نطاق واسع. كان هدف دانييلي كومبوني معانقة إفريقيا، وذلك بالسعي لخوض عملية مزدوَجة للتحرّر من براثن الفقـر وللانعتاق من نيـر العبودية. وكان هدف جوفاني باتيسـتا سكالابريني وجيريميا بونوماللي ملاحقة المهاجِرين، سواء أكان في الأرجنتين أو في أمريكا. كانت العملية الأخيرة تستهدف كفّ النزيف الذي حلّ بإيطاليا جرّاء وطأة الجوع والاحتيـاج والاندفاع صوب المهجر. فقـد ظهر بين نهاية القرن التاسع عشـر ومطلع القرن العشـرين جيلٌ من المحسِنين، لم تتحدّد

5 ـ E. Lecanuet, *La vie de l'Église sous Léon XIII*, Paris 1930, p. 629.

6 ـ E. Lecanuet, *La vie de l'Église sous Léon XIII*, Paris 1930, p. 629.

أشـغالهم بتوفير الحاجات الأوّلية، مثل الطعام والكساء، بل تخصّص بحسب الحاجات العاجلة في المجتمع. شُـيِّدت مدارس متنوّعة التخصّصات ومختلفة المستويات، فضلاً عن إقامة مؤسّسات العناية بالمرضى ومساعدة كبار السنّ والمساجين، وخدمات رعاية الشباب ومساعدة المهاجرين. فمع نهاية القرن، وتحديداً مع قيام الوحدة الإيطالية 1861، بـدا البلد فقيراً، واقعاً تحت وطأة الجهل والفاقـة. فقط 25 بالمائـة من الإيطاليـين كانوا يحسـنون القراءة والكتابة. ولم تنقضِ سـنة 1881 حتى غادر ثلث الأطفال مقاعد الدراسة. فما عادت العناية بالإحسـان في حدود توفير الصدقة، بل غدا الإحسان مُمَأسَساً، تحوّل إلى نشاط دائم ومهيْكل، وليس موسمياً وظرفيّاً، بمعنى ألّا يتوقّف بمجرّد توقّف حالات الطوارئ. كانت تلك الأشـغال الجارية تحـت عين رجال الدين المحافظين، والمتمثّلة في التعاونيات وفي بنوك الاقتراض الصغرى، الفلاحية والصناعية، الهادفة إلى خلق نظام اجتماعي تكافلي والوقوف سدّاً منيعاً، بما يحول دون تمدّد المفهوم المادي للتاريخ وإغراءات الإيديولوجيا الاشـتراكية. كانت تلك الأشـغال تنظيماً ـ كما يقول جيريميا بونوملي ـ يفكّر في السياسة أكثر مما يفكّر في الديـن. وكان الهدف من العمـل الاجتماعي للكنائس هو تحقيق «الديمقراطية المسـيحية»، بمعنى «النظام المدني الذي تتضافر فيه كافة القوى الاجتماعية والقانونية والاقتصادية»[7].

ثالثاً: الإحسان بين البابوَيْن بندكتوس الخامس عشر وبيوس الحادي عشر

تميّزت الفتـرة البابَويّة لرأس الكنيسـة بندكتوس الخامس عشـر بحدّة المشاكل، الناتجة عن اندلاع الحرب العالمية الأولى، وما انجرّ عن ذلك من تزايد أعمال الإغاثة جـرّاء الأوضاع الدرامية الناتجة عـن الحرب[8]. في تلك الفترة انشـغل جاكومو ديللا كييزا (البابا بندكتوس الخامس عشـر) بمهمَّتين

7 ـ G. Toniolo, *Il concetto cristiano della democrazia*, in G. Are, *I cattolici e la questione sociale in Italia (1894-1904)*, Milano 1963, p. 216.

8 ـ G. Quirico, *L'opera del Santo Padre Benedetto XV in favore dei prigionieri di guerra*, «La Civiltà cattolica», 69, 1918, 2, pp. 116-129, 293-308, 398-414; 70, 1919, 3, pp. 396-413; 70, 1919, 4, pp. 273-284, 396-408; 70, 1919, 5, pp. 20-30, 120-130, 292-303.

أساسيتين على صلة بالشأن الاجتماعي، وذلك بتشجيع منه: من ناحية أولى تشجيع الإكليروس على إيلاء تحسين الأوضاع العمالية اهتماماً، من خلال التحريض على العمل التعاوني، ومن ناحية ثانية وتبعاً لرسالة كونغريغاسيون المجمع إلى أسقف ليل، المنشورة سنة 1919، تمّ القبول والإقرار بشرعيّة العمل النّقابي المسيحي، بعد أن كان محظوراً، في مسعى لمجابهة العمل النقابي الاشتراكي والشيوعي. بشكلٍ سمح للعمّال المسيحيين ـ وبكلّ حرّية ـ بالدفاع عن مصالحهم الاقتصادية المشروعة دون أي مسّ أو ضرر بقناعاتهم الدينية والروحية[9]. فلم يكفِ الحياد المتّبع من قِبل الكرسي الرسولي أمام الصراع المتفجر مع الحرب العالمية واتخاذ موقف عُرِف بِـ«دبلوماسية الإنقاذ»، كما كتب ألبيرتو مونتيكونه[10]، بل جرى تنظيم حملة إنسانية وخوض عمليات إغاثة، انشغلت أساساً بالمتضررين من المحارِبين وبأسرى الحرب، وبالجرحى، وبترحيل العجزة. ولم ينحصر عمل تلك الحملة على أفرادٍ معيّنين؛ بل كان عملُها الإغاثيّ متوجّها لشعوب بأسرها، ولمناطق يتكدّس فيها اللاجئون. لعب الكهنة التابعون للجيش دوراً بارزاً في تلك الأعمال إبّان فترة الحرب، وتقريباً بين العامين 1915 و1918 كان ما يناهز 25.000 من رجال الكنيسة يرتدون البزّة العسكرية، ومنهمِكين في عمل الإحسان بشكلٍ يومي خدمة للمجنَّدين والعسكريين. فقد انشغل العديدُ من الأساقفة ـ لا سيما في مناطق الصراع ـ بالأنشطة الخيرية الموجّهة للمجموعات المحارِبة وللشعوب المحلّية أيضاً الواقعة ضحية الغزو[11].

تبعاً لرسالة كونغريغاسيون المجمع إلى أسقف ليل، المنشورة سنة 1919، تمّ القبول والإقرار بشرعيّة العمل النّقابي المسيحي، بعد أن كان محظوراً، في مسعى لمجابهة العمل النقابي الاشتراكي والشيوعي.

9 ـ *Le discours sociale de l'Église catholique. De Léon XIII à Jean-Paul II*, éd par Ceras, Paris 1985, pp. 73-83.

10 ـ A. Monticone, *Il pontificato di Benedetto XV*, in *Storia della chiesa*, XIII, *I cattolici nel mondo contemporaneo (1922 – 1958)*, cit., p. 174.

11 ـ F. Malgeri, *La Chiesa i cattolici e la prima guerra mondiale* in *Storia dell'Italia religiosa*, III, *L'età contemporanea*, a cura di G. De Rosa, T. Gregory, A. Vauchez, Roma-Bari 1995, p. 201.

ومع اعتلاء البابا بيوس الحادي عشر السدّة البابوية توسّع العمل الخيري ـ الاجتماعي والإغاثي ـ ليشمل أرجاء واسعة في أوروبا. كان الإعلان البابوي «**السنة الأربعون**» (*Quadragesimo anno*) الصادر خلال عام 1931 ـ بمناسبة الذكرى الأربعين لصدور الرسالة البابوية «**القضايا المستجدّة**» ـ قد حثّ الكنيسة على الانشغال بالعمل الاجتماعي على نطاق عالمي من أجل مستقبل أفضل للمسيحية. ومما حثّ عليه الإعلان: الدعوة إلى ترسيخ نظام اجتماعي عادل، والمناداة ببناء اقتصاد تعاوني يتميّز عن نظيريه الرأسمالي والاشتراكي. جاء الإعلان البابوي في جوهره تنديداً بالاشتراكية والشيوعية، وفي الآن نفسه اتخذ البابا مسافة من الليبرالية الجشعة، بعد أن تحوّلت الرأسمالية إلى سلطة اقتصادية قهرية بيَدِ قلّة، عادةً ما كانت من الملّاك، بل مجرّد فئة متحكّمة برأس المال توظّفه لأغراضها ومصالحها الضيقة... حيث تتحكم بروح الاقتصاد ولم تترك سبيلاً لغيرها[12].

لقد استندت تلك الأوضاع المشينة بالأساس إلى إمبريالية عالمية قائمة على الرّبح والدّينار. ولم يكتف بيوس الحادي عشر بالتنديد بالوضع، بل حثّ الكاثوليك على الكدّ والعمل، مقترحاً ما يشبه «الطريق الثالث» بين الاشتراكية والرأسمالية، لكن وبشكل بارز اعترف بقيمة وجدوى العمل النقابي للعمّال المسيحيين. كانت أزمة 1929، وانهيار بورصة «وول ستريت»، وبروز الأنظمة الشمولية، وتوسع رقعة الصراعات الاجتماعية ـ من المظاهر التي لا تتعلّق فحسب بصراع بين إيديولوجيتين، بل غدا الأمر برمّته صراعاً بين نمطين للدولة الوطنية. أدرَج البابا بيوس الحادي عشر مبدأ العدالة الاجتماعية ضمن محاور برنامجه، مؤكّداً أن توزيع الثروات يهدف إلى مقصد أعلى أخلاقي وإنساني؛ وهو الاحترام والدفاع عن الصالح العام. فالشيء الجديد للإعلان البابوي يتلخّص من جانب في الاعتراف بمركزية الإحسان كفضيلة لاهوتية، وكمكوِّن أساسي لأيّ برنامج للعمل الاجتماعي، ومن جانب آخر يتلخّص في القناعة الراسخة بأنّ حلّ المشكلة الاجتماعية يكمن في التوزيع العادل وعلى نطاق عالمي للثّروات.

12 ـ Pio XI, *Quadragesimo anno* (15 maggio 1931), in *AAS*, 23, 1931.

ازداد العمل الخيري للكنيسة على نطاق عالمي، خلال فترة ما بين الحربين، متّخِذاً أبعاداً عامة لم يشهدها من قبل، وتقريباً شهدت الفترةُ انخراطَ نصف مليون من رجال الدين العاملين في العمل الخيري، منهم ثلاثمائة ألف من الراهبات، وبلغت أعداد المؤسسات الخيرية ثلاثين ألفاً، وشملت المساعدات ما يضاهي المليونين ونصف المليون من المنتفعين، وتقريباً بلغ عدد المتطوعين الكاثوليك، العاملين في المساعدات المحلية، قرابة ستة ملايين ونصف المليون، وبلغ عدد المؤسسات الخيرية في إيطاليا وحدها أكثر من ثلاثة آلاف وستّمائة مؤسسة، تعنى بالمساعدة والرعاية، توزّعت بالأساس على مناطق بيمونته وفينيتو ولاتسيو ولومبارديا، مع انتصاب وإنشاء آلاف المصحّات والمدارس ودور الأيتام والعجزة والمحتاجين[13]. ولم ينحصر عَملُ المساعدة في شكله المؤسّساتي فحسب؛ بل عضده أيضاً جانب من المساعدة اليومية، الفردية الخفية، سواء أكان بدفع من جماعات مدنية مثلث «مؤتمر سان فنشنسو دي بولي» أو من «مؤتمر سانتا إليزابيتا»، أو من «تنظيم مالطا»، وقد مثّلت تلك المساعدات جانباً مهمّاً بفعل الشبكة الناشطة في أوساط المهمَّشين، لا سيما داخل التجمعات الحضرية الكبرى.

ازداد العمل الخيري للكنيسة على نطاق عالمي، خلال فترة ما بين الحربين، متّخِذاً أبعاداً عامة لم يشهدها من قبل، وتقريباً شهدت الفترةُ انخراطَ نصف مليون من رجال الدين العاملين في العمل الخيري.

رابعاً: المساعدة أم التحرير؟

في إحدى خطب البابا بولس السادس سنة 1963 ألحّ على أنّ «الكنيسة تنظر بعين الرأفة للفقراء والمحتاجين والمصابين والجياع والمعذّبين والمسجونين، بما يعني أنّها تنظر إلى كافة الذين يعانون؛ فهناك ارتباطٌ

13 ـ *Annuario generale comunità religiose, istituti di assistenza, collegi e scuole cattoliche in Italia*, Roma 1956; S. Congregazione concistoriale, *Annuario delle diocesi d'Italia*, Torino 1957; *Annuario delle Religiose d'Italia*, a cura di A. Leoni, Roma 1957.

إنجيليٌّ بين الطرفين»[14]، حينها رفض البابا بولس السادس مراسم التتويج، وفي كاتدرائية القديس بطرس في روما وضعَ التاجَ ليهبه في عملية رمزية للفقراء والمحتاجين. كان للبابا بولس السادس حسٌّ ديني رمزيّ متطوّر، هدف من خلال تلك العملية إلى إبراز تخلّي الكنيسة أمام عيون العالم عن كلّ سلطة دنيوية، لتنضمَّ إلى صفوف الفقراء والمساكين.

تعدّدت المبادرات مع البابوات اللاحقين، فمع حقبة البابا يوحنا الثّالث والعشرين وما صاحبه من احتفاء بانعقاد مجمع الڤاتيكان الثاني، عاد موضوع الفقر والفقراء إلى جوهر اهتمامات الكنيسة، فحين صعد أنجيلو رونكاللي (يوحنا الثالث والعشرون) السدّة البابوية كان العالم يشهد تغيرات راديكالية؛ ففي الغرب سرى تطوّر اقتصاديّ حثيثٌ، شمل ميادين عدّة، وازداد أمل الحياة بين الشعوب، وقابَل ذلك التطوّر في العالم الغربي بؤساً وتخلّفاً في بلدان العالم الثالث، ترافَقَ بتفجّر ديمغرافيّ هائل. وباتت هوّة عميقة تفصل العالم الغنيّ عن عالم الجنوب المنهَك. غدا الجوع والعطش والمجاعة والأوبئة وتدنّي التعليم: العناوين البارزة للارتهان الذي تعاني منه الشعوب الواقعة تحت وطأة التخلّف، فليس الفقر عنوان التردّي الخاص ببعض الطبقات الاجتماعية، بل غدا ظاهرة عامة مُعْدية تمسّ العديد من المجتمعات.

لقد شهدت الكنيسة عقب سنوات المجمع اختباراً عسيراً، عُرف تحت مسمّى «الخلاف الكاثوليكي»، تعلّق الأمر بحركة عفوية متعدّدة الأوجه، هدفت أساساً إلى تجديد الكنيسة، من خلال طرح إكليزيولوجيا جديدة (علم كَنَسي) يتأسّس على التقرّب من الفقراء، ويندّد بالطّابع التمييزي للبرجوازية وللعديد من المؤسّسات الاجتماعية والسياسية، مع رفض الحرب والانتهاء عن أداء الخدمة العسكرية. فليس هناك انفصالٌ في النّظر بين الإيمان والخدمة الاجتماعية والفعل السياسي؛ ذلك أنّ الفصل بين السياسة والدين ملغيّ. ثمة رفضٌ للمسيحية المحايِدة والمحتشِمة، التي تكتفي بمدّ يد العون بشكلٍ أبويّ لا غير للفقير والمهمَّش، وترفض النضال من أجل التأكيد على العدالة، التي

14 ـ Paolo VI, *Encicliche e discorsi*, I, Roma 1963, pp. 216-218.

ليست حلماً في حدود الآخرة فحسب، بل ينبغي أن تكون هدفاً معيشاً للفقراء في الحياة الدنيا. ترى هذه الثقافة ـ المثقَلة بحسّ المساواة ـ في السياسة قاطرةً ضروريةً في أيّ تغيير اجتماعي واقتصادي، كما تتضمّن أيضاً حسّاً معادياً للسياسات الأمريكية بسبب حرب فيتنام وبالتأويل الأحادي للمجمع. دفع كلُّ ذلك الحركةَ إلى خوض معارضة مفتوحة مع الكنيسة المؤسساتية، التي يُنظَر إليها على أنها شديدة التحالف مع السّلطة السياسية المحافِظة ومع السلطة الاستعمارية، بما جعلها تقلِّص فعل الإحسان إلى نوع من الإسكاتولوجيا السياسية الاجتماعية. فقد زاد من سخط هذه الحركة القبول بالسياق الماركسي في حلّ مشاكل الفقراء والمهمَّشين، سواء أكان ذلك في الدّول الغنية أم في دول العالم الثالث، وذلك بالدّعوة إلى تحرير سياسي. فلا يمكن أن يُختَزل عمل الإحسان في مجرّد مدّ يد العون؛ لأنّ المسألة أعمق من ذلك، ولأنّ الفقير هو مضطهَد ومسلوب الكرامة الإنسانية جرّاء وطأة التخلّف. لقد فقد عمل الإحسان أيّ قيمة متعالية وحقيقية إلّا في حال استناده إلى وعيٍ سياسي.

غادر العديدُ من رجال الدين مؤسّسات الانتماء، والتحقوا بالأحياء الفقيرة والمهمَّشة؛ فقد اجتاحت الحياة الدينية روحٌ من التجديد اللاهوتي مع اكتشاف مستجدّ لمفهوم الفقر وأبعاده الحقيقية.

وتحت وقع موجة الالتزام هذه، غادر العديدُ من رجال الدين مؤسّسات الانتماء، والتحقوا بالأحياء الفقيرة والمهمَّشة؛ فقد اجتاحت الحياة الدينية روحٌ من التجديد اللاهوتي مع اكتشاف مستجدّ لمفهوم الفقر وأبعاده الحقيقية. هكذا هجر رجال الدين حياة الدعة من منظور مادي، واختاروا العيش داخل تجمّعات رهبانية صغرى، عادة ما كانت تقع محلات أنشطتها وسكناها على أطراف المدن الكبرى، وفي الأحياء السكنيّة الرثّة.

أعاد التراجع الاقتصادي الهائل ـ الذي أطلّ برأسه مع عام 1973، جرّاء الأزمة البترولية العالمية التي ترافقت بالظهور المستجدّ للبطالة والتضخّم ـ إلى قلب النقاش السياسي والاجتماعي والثقافي موضوع الفقر؛ فاليقين

المطلق بأنّ النموّ الاقتصاديّ جدير لوحده بإبعاد شبح الفقر نهائياً تَوَاجه مع واقع السياق التاريخي. لقد استنفدت أسطورة التقدّم الاقتصاديّ طاقتها، وتهاوت وعود كبرى؛ فبعد سنوات من الصّمت واللامبالاة عاد الفقر يطلّ برأسه مجدداً، أيضاً على مستوى ثقافي وعلمي، مثّل موضوعاً للعديد من الدراسات والأبحاث من مختلف المؤسسات المعنية والمتابعة. ومع نهاية السبعينيات تبيّن أنّ الفقر ليس نقصاً في الإمكانيات الاقتصادية والقدرات المادية، بل هو عجز عن الدخول لأنواع الاستهلاك الجديدة ونقص في العلاقات الاجتماعية. في إيطاليا وحدها، مع عام 1983 تمَّ تسجيل سبعة ملايين شخص ممّن يعيشون تحت خط الفقر، أي بما يساوي 13 بالمائة من مجموع السكان، وارتفع العدد بعد خمس سنوات إلى ثمانية ملايين ونصف المليون، بما يضاهي 15 بالمائة، وهي نسبة عالية جداً في وسط اجتماعي ينتمي إلى المجموعة الغربية المتطورة والميسورة.

لقد ظهر جمعٌ من علماء الاجتماع ورجال الاقتصاد صاغوا صورةً جديدةً للفقر تحت عنوان «ليس فقر العالم الثالث»، كما كان يُردَّد إبّان تلك الفترة، فمن ذلك العهد غدا قياسُ الفقر بناءً على أوضاع الأُسر وليس على المواطنين فرادى، كما يُصنَّف الفقر بحسب مستوى رفاهية الحياة، وبحسب الوسائل الاقتصادية المتاحة، وكذلك بحسب مصاريف الاستهلاك، علاوة على الدخل الأُسري. ثمة تفريق بين الفقر النّسبي والفقر المدقع؛ فأن يكون المرء فقيراً ليس بمعنى أن تكون لديه حفنة زهيدة من المال، بل هو سياق معقَّد. فقد ظهرت معايير جديدة في التحليل والحصر، مثل تساوي الفرص الاجتماعية وعدم تساويها، والمساواة وعدم المساواة، ولكن بالخصوص التهميش الاجتماعي. فما عادت عناصر الهشاشة الاجتماعية ذات طابع اقتصادي بحت، بل ثمّة العزلة وعدم القدرة على مواجهة نوازل الحياة السلبية، والفقر الخفيّ. فقد تعدّدت معاني الفقر وفق المعايير المستجدّة. بدأ الحديث في فرنسا ثم في إيطاليا عن أشكال الفقر الجديدة. ومع سنوات السبعينيات برز الحديث عن المسنّين، الذين ينقلبون بين ليلة وضحاها «غير مرغوب فيهم»، كما عبّر عن ذلك أحد الكتّاب في مؤلَّفٍ دقّ ناقوس الخطر وعرض الظاهرة صادرٍ عن

«التعاونية الثقافية الشعبية» بإيطاليا[15]. تحوَّل وجه الفقر والتهميش الاجتماعي وباتت معايير أخرى محدِّدة لتلك الظواهر، مثل المخاطر التي تهدّد الشبيبة، والنقائص التي يعاني منها ذوو الاحتياجات الخاصة، والمرضى النفسيون، والذين يعانون من عاهات بدنية، ومدمِنو المخدّرات والكحول، والمساجين ونزلاء السجون السابقون، والأجانب، والذين ليس لهم مقرّ إقامة دائم، والأُسر المهدَّدة بالفقر أو فاقدة السند.

شهدت الفترة تطوُّراً من ناحية عدد المنظّمات والهيئات العامِلة في قطاع مقاومة الفقر والخصاصة بوجه عام؛ فإلى جانب المنظّمات التي ظهرت قبل انعقاد مجمع الڤاتيكان الثاني مثّلت منظمات «كومونيون وليبراسيون»، و«حركة فوكولاري»، و«كامينو نيوكاتيكومينالي»، و«تجديد الروح»، موجةً عارمةً للنشاط التطوّعي، في مسعى للإجابة عن الحاجات الجديدة للفقر، بالتوازي مع استنفاد التدخّل العمومي الآتي من جانب الدولة، ناهيك عن ضياع مشروعية المؤسّسات الحزبيّة.

في المؤتمر الأوّل للمتطوِّعين المتشكّل على نحو أساسيّ من أتباع الكنائس وروّادها، والذي عُقِد في مدينة ساسوني سنة 1975، برعاية «منظّمة الكاريتاس» الخيرية، شاركت 181 جماعة عاملة في مجال الخدمة الإنسانية في القطاع الاجتماعي.

في المؤتمر الأوّل للمتطوِّعين المتشكّل على نحو أساسيّ من أتباع الكنائس وروّادها، والذي عُقِد في مدينة ساسوني سنة 1975، برعاية «منظّمة الكاريتاس» الخيرية، شاركت 181 جماعة عاملة في مجال الخدمة الإنسانية في القطاع الاجتماعي. وهي تجربةٌ في غاية الأهمية، هدفت إلى الاقتراب من حاجات الفقراء في المجتمع، كما عملت على دمج الشبّان من ذوي الاحتياجات الخاصة في المجتمع، ناهيك، عن غيرهم من ذوي الاحتياجات المتنوّعة، ممّن يعانون من الإدمان أو العاهات النفسية، أو ممن كانوا من المساجين السابقين.

وفّرت تلك الخدمات للمحتاجين للمعونةِ نوعاً من السّند المعنويّ والماديّ، بما خلق نوعاً من التماسك داخل النسيج الاجتماعي، وقد أتى ذلك

15 - A. Ardigò, *Crisi di governabilità e mondi vitali*, Bologna 1980.

ضمن خطّــة تهدف إلى «مقاومــة التهميــش». فلا يحتاج الفقــراء إلى حقّ المساعدة فحسب، بل يحتاجون أيضاً إلى إعادة الدمج في النسيج الاجتماعي، بذلك الشــكل يمكن بناء روابط اجتماعية مستجدّة وخلق لُحمة حقيقية. يغدو الإحسان على ذلك النحو مشاركةً «للأواخر» همومهم واعترافاً لهم بحقوقهم، بل بالأحرى إعادة دمجهم وإشراكهم في التمتّع بمزايا مجتمع الرفاه.

في تلك الســنوات ظهرت «جماعة ســانت إيجيديو» التي غدت منظّمة خيرية عالمية. يتعلّق الأمر بتجربة «وُلدت في الوسط الطلّابي بهدف الحدّ من معاناة الفقر في أحياء الضواحي المهمَّشة، لتغدو ـ في زمن وجيز ـ نقطة مرجعية أساسية في التنمية والحوار بين الأديان، وفي التعاون من أجل بناء السلام بين الشعوب، لا ســيما في الدول التي تعاني من آثار الحروب»[16]. تطوّرت داخل هذه التجربــة رؤيةٌ محوريةٌ لِعمل الإحســان وخدمة المعوزين والمحتاجين، بعيداً عن التبســيط الإيديولوجي وعن المســاعدة السّاذجة، وذلك بالتحالف الجذري مع الفقراء، بوصفهم إخوة ومقرَّبين، وهو ما يعني التوحّد مع من هم بحاجة إلى المساعدة والخدمة[17].

فبعد مجمع الڤاتيكان الثاني الشهير اِكتشف الكاثوليكُ العالمَ الثالثَ، الذي لم يبقَ مجالاً للتأمّل فحسب؛ بل مجالاً للالتزام بقضاياه والتعاون معه لأجل نيْلِ حقوقه. جرى اعتماد سُبلٍ عدّة لبلوغ تلك الأهداف، وذلك من خلال الاقتراب من المشاكل الحقيقية للدُّول السائرة في طريق النمو. فقد فتحت مسارات تصفية آثار الاستعمار آفاقاً واعدة للكنيسة نحو التجدّد. هزّ العالمُ الثالث الضميرَ الكاثوليكيَّ الغربيّ مما ولّد مساراً خيريّاً بأبعاد كبرى هدفت بالأســاس إلى الحدّ من معاناة شــعوب الجنوب. رأت النّور في تلك الفترة العديد من التجارب الخيرية، فظهرت خلال العام 1978 «الحركة التطوّعية الإيطالية»، ثم «المؤسّســة التطوّعية الإيطالية» التي باتت في ظرف وجيز

16 ـ M. Guasco, *Chiesa e cattolicesimo in Italia (1945-2000)*, Bologna 2001, p. 110.

17 ـ M. C. Marazzi, *Poveri nostri fratelli: la vita della Comunità di Sant'Egidio*, in *I poveri sono il tesoro prezioso della Chiesa: Ortodossi e cattolici nella via della carità*, Convegno promosso dalla Comunità di Sant'Egidio.

الجهاز المحوريّ في العمـل التّضامني الذي لا غنى عنـه[18]. لكن مع عقد الثمانينيات اتّخذ الإحسان منحى اجتماعيا بالأسـاس اعتمد العمل الطوعي غير الربحي والمجانيّ.

خامساً: الانطلاق من الأواخر

لقد دشّـن صعودُ البابا يوحنّا بولس الثاني إلى سـدّة بطرس سنة 1978 دورةً جديدةً في تاريخ الكنيسة مع العمل الخيري، ومن بين التطلّعات الكبرى للبابا كارول ووجتيلا (يوحنّا بولس الثاني) وهو المسـعى الجاد للتقريب بين العائلة البشـرية المقسَّمة بين الشمال والجنوب، بين الرفـاه والاحتيـاج، بين عالم متطـوِّر وآخر متخلَّف. وبهدف تخطّي هذا التفاوت الفاضح وجّهَ البابا جانباً كبيراً من طاقته إلى هذا العمل، وإن لَفَّ ذلك جـدلٌ كبيرٌ مـع ما يعـرف بِـ«لاهوت التحرير»؛ ففي كافة رحلاتـه إلى عالَم الجنوب أصرَّ الرجل على أنّ الكنيسةَ تريد أن تكونَ صوت من لا صوت لهم، من خـلال المطالَبة بالعدالة للفقراء وليس فقط العيش على الصدقة. وبشكلٍ منهجـيّ يمكـن تلخيـص رؤاه فـي الرسـالتين البابويتين العامتيْن: «الاهتمام بالشأن الاجتماعي» (1987) و«السنة المائة» (1991)، عَدَّ فيهما يوحنّا بولس الثاني مسألةَ التخلّف في جوهر انشغالات الكنيسة لولوج الألفية الثالثة.

لقد دشّن صعودُ البابا يوحنّا بولس الثاني إلى سدّة بطرس سنة 1978 دورةً جديدةً في تاريخ الكنيسة مع العمل الخيري، ومن بين التطلّعات الكبرى للبابا هو المسعى الجاد للتقريب بين العائلة البشرية المقسَّمة بين الشمال والجنوب.

وبالحماس نفسه اكتشفت المؤتمراتُ الأسقفية ـ مع سنوات الثمانينيات ـ الطريق إلى بناءِ عالَم جديد أكثر التحاماً بقضايا الفقراء، وقد تجلّى هذا من خلال العديد من الأنشطة المحلّية. نذكر أنّ البابا الأسبق بولس السادس قد أبدى فتوراً نحو عمل المساعدة وسعى في تأسيس ما عُرف بمنظّمة الكاريتاس

18 ـ Censis, *XXV Rapporto sulla situazione sociale del paese*, Milano 1991.

الخيرية، وهو تحوّلٌ جذريٌّ في رؤية العمل الخيري وفهمه، فأثناء عام 1972 حين التقى البابا بولس السادس بالقائمين على «منظّمة الكاريتاس» تحدّث عن «بيداغوجيا الإحسان»، الذي يتخطّى مجرّد توزيع الإعانات المادية إلى مَأْسَسة الفعل الخيري. حيث لا يُقاس عمل الإحسان بحسابات الأرقام وبالميزانيات المضبوطة، ولكنه يتحوّل ضمن الفلسفة الخيرية الجديدة إلى نشاط اجتماعي حقيقي[19]؛ فالهدف الجديد هو النهوض بالحياة البشرية وتحسينها عبر المشاركة وعبر ترسيخ مبدأ العدالة. تضافر ذلك المسعى مع انعقاد سينودس للأساقفة، ألحّ على أنّ العمل الاجتماعي ينبغي أن يترافق مع عمل الأنْجلة والتبشير، وهو ما سيكون له تأثير واضح على توجّهات الكنيسة المستقبلية. بدت انشغالات الكنيسة بالشرائح المهمّشة دينية ودنيوية في الآن نفسه... فالفقراء هم أحباب اللّٰه المقرَّبون، والكنيسة حين تتناسى الفقراء لا تغدو كنيسة وتفرّط في نهج المسيح؛ لأنّ الفقراء مقرّبون وتشملهم عناية الرب[20].

في الثلاثين من أكتوبر وإلى غاية الرابع من نوفمبر من عام 1976 عقد أساقفة الكنيسة بروما مؤتمراً موسَّعاً تحت عنوان: «التبشير بالإنجيل وتنمية الحياة البشرية». كان الهدفُ من وراء ذلك إيجاد وحدة عميقة بين الخيارات الدينية والعمل الخدماتي، من أجل تضافر الجهود لغرض موحَّد وتفادي التناقض في العمَلين[21]. دعا البابا حينها إلى ضرورة الاعتراف بالمجتمعات الغربية التعددية، والتي إن فقدت جانباً من خصائصها المسيحية؛ فإنّ الكنيسةَ مدعوّةٌ للعمل فيها بتواضع وإقدام، إلى غاية أن يستعيد الإيمان المسيحيّ موضعه وفاعليته.

19 ـ *La Chiesa della Carità. Miscellanea in onore di mons. Giovani Nervo*, a cura di G. Perego, Bologna 2009, pp. 331-334.

20 ـ L. Di Liegro, *Il cristiano ritorni ad esser un cristiano politico*, «Orientamenti sociali sardi», 8, 2003, 1, p. 104.

21 ـ A. Acerbi, *La Chiesa italiana dalla conclusione del Concilio alla fine della Democrazia Cristiana,* in *La Chiesa e l'Italia. Per una storia dei loro rapporti negli ultimi due secoli*, a cura di A. Acerbi, Milano 2003, p. 473.

لقد أسهمت الدولة الإيطالية من جانبها إسهامات فعّالة في تطوير العمل الخيري داخل الكنيسة، فعلى إثر إصلاح اتفاق «الكونكورداتو» الذي ينظّم علاقة الدولة بالكنيسة، سنة 1984، توفر سندٌ مادي مهمّ موجَّه للكنيسة وترعاه الدولة: من خلال الحصول على خصم يضاهي ثمانية بالألف من العائدات الضريبية لكافة المواطنين، ممّا وفّر للكنيسة سنداً ماديّاً وفيراً. تسلّمت الكنيسة بمقتضاه ـ خلال العام 1995، 916 ملياراً، وسنة 1996، 1496 ملياراً، وسنة 1999، ما مقداره 1504 مليارات. وهو ما سمح للكنيسة بتغطية نفقات مهمّة لجهاز الإكليروس وتوجيه قسط هام من تلك العائدات إلى العمل الخيري أيضاً، سواء نحو الداخل الإيطالي أو نحو بلدان العالم الثالث. استطاعت تلك العائدات ما بين عام 1990 و2005 أن تسهِم في إنجاز 6275 مشروعاً بقيمة 710 مليارات من اليورو، وكانت جملة من تلك المشاريع موجَّهةً أساساً إلى بلدان الجنوب[22].

خلال عام 1972 حين التقى البابا بولس السادس بالقائمين على «منظّمة الكاريتاس» تحدّث عن «بيداغوجيا الإحسان»، الذي يتخطّى مجرّد توزيع الإعانات المادية إلى مَأْسَسة الفعل الخيري. حيث لا يُقاس عمل الإحسان بحسابات الأرقام.

ضريبة ثمانية بالألف التي تحصل عليها الكنيسة من الدّخل السّنوي لكلّ مواطن تجاوزت المليار يورو خلال العام الحالي، بما مقداره تحديدا 1.133.074.425 يورو، وقد بلغت خلال السنة الفائتة ما مقداره 997.973.199.26 يورو. خلال العام الحالي خُصّص تقريباً مقدار 10 بالمائة منها للعمل الإغاثي والمساعدة على نطاق عالمي، وهي في العادة مساعدات تتعلّق بمشاريع تكوين وإنشاء مؤسسات تدريس وبعث مراكز تهدف بالأساس إلى رفع الأُمية، والحيطة الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتنمية الزراعية، والنهوض بالقطاع النسوي، وحماية الشرائح الضعيفة، توزّعت على ثمانين دولة في العالم. وللذِّكر تسهر على المشاريع التي ترعاها «منظّمة الكاريتاس» «لجنة التدخل الإغاثي لفائدة العالم الثالث»، وهي منظمة تابعة للمجلس الأسقفي. تجتمع

22 ـ Cei, *Dalla parola alle opere, 15 anni di testimonianze del Vangelo della carità nel Terzo mondo*, Roma 2005.

اللجنة ستّ مرّات في السنة، وهي تتكون من 14 عضواً من رجال الدين المبشّرين ومن خبراء جامعيين، ومن أطباء ومهندسين. تتلقى اللجنة المذكورة سنوياً ما يقارب 1500 طلب لبعث مشاريع، ينال زهاء ثمانمائة مشروع منها الموافقة.

نشير في هذا الشأن إلى أنّ عدد المؤسسات الخيرية والإغاثية التابعة للكنيسة المنتشرة عبر العالم يبلغ: (5391) مستشفى، نجد العدد الأكبر منها في القارة الأمريكية (1727)، تليها إفريقيا بـ(1295)؛ كما تملك الكنيسة (16610) نقطة صحّية، يوجد العدد الأوفر منها في إفريقيا (5181)، وفي أمريكا (4731)، وفي آسيا (3520)، كما تملك الكنيسة 604 مشفًى مخصّصاً للأمراض الجلدية، يتوزّع أغلبها في آسيا (296) وفي إفريقيا (187)، نشير كذلك إلى أنّ الكنيسة تملك (16270) داراً للعجزة وللأمراض المزمِنة والمعوقين، يوجد العدد الأكبر منها في أوروبا (8348)، وفي أمريكا (4086)، كما تملك الكنيسة 9924 دار الأيتام غالبيتها في قارة آسيا (3934)؛ كما تملك الكنيسة (12376) روضة للأطفال، يوجد العدد الأكبر منها في أمريكا (3435)، وفي آسيا (3247)، كما لدى الكنيسة 14551 مستشاراً في الزواج، أغلبهم يقدّمون مشورتهم في أوروبا (5666)، وفي أمريكا (5546)، وتملك الكنيسة أيضاً (3776) مركزاً للتربية والتأهيل الاجتماعي، و(38484) مؤسّسة خدمات من صنف آخر[23].

مع مطلع القرن الواحد والعشرين وتحديداً مع بابوية بندكتوس السادس عشر (راتسينغر) شهد عمل الإحسان تحوّلاً باتجاه الانفتاح على قضايا العالم ومشاغله. بدا ذلك من خلال الرسالتين العامتين: «اللّه محبة» سنة 2005، و«المحبّة في الحقّ» سنة 2009. حثّ البابا رجال الدّين على اغتنام الفرص الجديدة التي يتيحها سياق العولمة. فالمسيحيون مدعوون لإبداع فكرٍ جديدٍ، وبذل طاقات أوفر، تتمثّل في ألّا تنثني الكنيسة عن فعل الإحسان بوصفه العمل الأثير للمؤمنين، ولم يغفل البابا بالمناسبة عن دعوته إلى تحمّل المسؤولية المدنية والسياسية من جانب المؤمنين لأجل خدمة الصالح العام.

23 ـ الأرقام مستوحاة من «الإحصاء العالمي للكنيسة»:
Annuarium Statisticum Ecclesiae, Libreria editrice vaticana, Città del Vaticano, 2017.